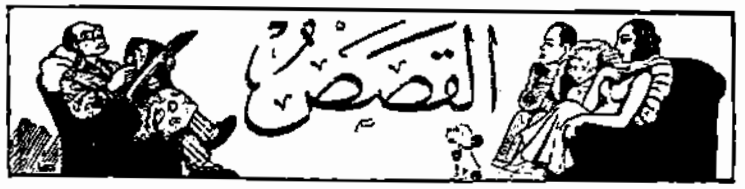

« سانياسى » أو الزاهد

مسرحية رمزية رائعة لشاعر الهند طاغور

ترجمة الأستاذ فخرى شهاب السعيدى

— ١ —

(« سانياسى » خارج الكهف)

— إنى لا أميز بين النهر والليالى ، ولا أعرف فارقاً بين الأشهر والسنين ، لأن تيار الزمن الذى يتراقص العالم على متن أمواجه تراقص المُصَافة والعساليج ساكنٌ لدى . إنى فى هذا الكهف المظلم وحيدٌ ، مغمورٌ فى نفسى ؛ والليل الأبدىّ ساجٍ كبحيرة فى جبل خانقة من عمق ذاتها ؛ والماء يرشح ويَنْقُطُ من الشقوق ، والضفادع القديمة سابحة فى البُرك . فأجلس مترنماً بترانيم العَدم ؛ وحدود الكون تتناءى خطّاً إثر خط . أما النجوم فإنها تنطفئ انطفاء الشرر المتطاير من سندان الزمن ؛ وأما سرورى فهو سرورُ الإلٰه « شيفا » الذى يستيقظ بعد دهور يقضّيها فى حلمه فيجد نفسه وحيداً فى قلب الفناء الذى لا حَدَّ له . إنى حرٌّ طليق . إنى أنا هو الأحد الصمد العظيم . إنى إذْ كنتُ عبدَكِ يا أيتها الطبيعة : سَلّطْتِ قلبى على ذاته ، وجعلتِهِ يثير حرب الانتحار الشعواء فى عالمه . وقد أثارتْ فىّ سَوْرة الغضب تلك الشهوات التي لا غاية لها غير نهش ذاتها والتهام كل ما يقترب من أفواهها ، فركضْتُ ركضَ الجانين فى مطاردة ظلى . لقد سقتنى بأسواط ملذاتكِ الخاطفة إلى خلاء الشبع ، ومشاعر الجوع ، وقادتنى دوماً مغريا تُكِ إلى القحط الذى لا انتهاء له حيث انقلب الطعام إلى تراب واستحال الشراب إلى بخار !

وإلى الوقت الذى كان فيه عالمى مُبقعاً بالدموع والرماد أقسمتُ بالانتقام منك يا أيتها السيدة التى لا حَدَّ لمظهرها وتنكّرها . لقد لذتُ بالظلام ، معقل اللامتناهى ، وكافحتُ النور الخادع يوماً فيوماً إلى أن فقد جميع سلاحه وارتمى منخذلاً عند قدمى . والآن ، وأنا منعتق من رق الخوف والشهوات ؛ الآن ، وقد زال النعاس وانبعث من عاقلتى نور الطهارة والذكاء . فلأخرج إلى عالم الأكاذيب ولأجلس على قلبه غير ملموس وبلا حراك

— ٢ —

(« سانياسى » على الطريق)

— ما أصغر هذه الأرض وما أضيقها ، وما أشد هذه الآفاق ثباتاً فى تطويقها ! إنّ مرأى الشجر والدور وجميع الأشياء ليضغط على عينى ضغطاً . والنور ! إنه مثل قفص فى حبسه ظلام الأبدية عن الدخول . والساعات ! إنها لتصرخ وتتواثب داخل حواجزها كأنها الطيور إذ تُحبس . ولكن ما لهؤلاء الرجال الصاخبين ينطلقون راكضين ولأى مقصد يسعون ؟ لكأنهم خائفون من أن يضيعوا شيئاً لا تستطيع أيديهم بلوغه !

[تمر زمرة من الناس]

(يدخل شيخ القرية وامرأتان)

المرأة الأولى : يا لله إنك لتضحكنى

المرأة الثانية : ولكن من قال إنك عجوز ؟

شيخ القرية : إن بعض الحمقى يحكمون على الناس من مظاهرهم

المرأة الأولى : واحسرتاه ! لقد كنا نرقب مظهرك منذ عهد حداثتنا ، وهو باق على ما عهدناه لم يتغير فى خلال هذه السنين

شيخ القرية : مثل شمس الضحى

المرأة الأولى : أجل مثل الشمس فى رائعة النهار

شيخ القرية : أيتها السيدتان ، إن فى ذوقكما ميلاً إلى الصرامة فى النقد ، إنكما تعنيان بتوافه الأمور

المرأة الثانية : دعك من هذا اللغو يا « أناكا » ولنسرع فى العودة إلى البيت وإلا ثار ثائر زوجى

المرأة الأولى : أستودعك الله يا سيدى . وأرجو أن تحكم علينا من ظواهرنا فلن نعير ذلك اهتماماً

شيخ القرية : ذلك لأنه لا ذات حقيقية لكما يمكن التحدث عنها غير هذا الظاهر ! [يخرجون]

(يدخل ثلاثة قرويون)

القروى الأول : أيشتمنى الوغد ! ليقرعنّ سنّ الندم إذاً

القروى الثانى : يجب أن يلقن الدرس بليغاً

القروى الأول : الدرس الذى سيتبعه إلى الرمس

القروى الثالث : أجل يا أخى ، فلا تنثن عزيمتك ولا تترك له الفرصة السانحة

القروى الثانى : لقد أخذه الغرور والتعاظم

القروى الأول : تعاظم يفتضى به إلى الانفجار

القروى الثالث : إذا نجحت أجنحة النحل كان فى ذلك هلاكه

القروى الثانى : وهل أحكمتم لأنفسكم منهاجاً ؟

القروى الأول : لا منهجاً واحداً فحسب ، بل مئات المناهج سأقلب عالى بيته سافله بمحراثى ، وسأطوفه على حمار فى المدينة مشهراً به صابغاً وجهه بالصباغ الأبيض والأسود ، وسأثير غضب العالم كله عليه و ... [ينصرفون]

(يدخل تلميذان)

التلميذ الأول : إنى واثق بأن الغلبة فى المناظرة إنما كانت للأستاذ « مدهب »

التلميذ الثانى : كلا ، بل الأستاذ « جاناردان » هو الذى فاز

الأول : لقد ثبت الأستاذ مدهب على رأيه حتى النهاية وقال بأن الرقة بنت الخشونة

الثانى : ولكن الأستاذ جاناردان قد أتى بالبرهان القاطع على أن الرقة هى أصل الخشونة

الأول : يستحيل ذلك

الثانى : بل هذا أمر واضح كالنهار

الأول : إنما أصل البذور الشجرة

الثانى : بل البذرة هى أصل الشجرة

الأول : ما قولك يا سانياسى ؟ أى هذا هو الحق ؟ أى هذين الأصل : آلرقة أم الخشونة ؟

سانياسى : لا هذه ولا تلك

الثانى : لا هذه ولا تلك ؟ إن فى هذا الكفاية

سانياسى : ما الأصل إلا النهاية ، وما النهاية غير الأصل . إنها حلقة ، وإن من جهلكما ينشأ الخلاف بين الرقة والخشونة

الأول : الأمر واضح جداً . وما أرى فى هذا غير قول أستاذى

الثانى : بل إن هذا لينطبق على تعاليم أستاذى أنا بغير شك

[ينصرفان]

سانياسى : هذه الطيور لواقط كلم ، وما سعادتها إلا بالتقاط الحب الملتوى الذى تملأ به أفواهها .

(تدخل بائعة زهر)

تغنيان : « تمر الساعات بطيئة ؛

وتذوى الأزهار المتفتحة فى النور

فتسقط فى الظل

وقد خيل إلى أننى سأضفر إكليلاً

فى سجسج الصباح لمحبوبى ؛

ولكن الصبح يجر ذيوله متثاقلاً ،

والزهر على غصونه لا يجد قاطفاً ،

لأن حبيب النفس مفقود ... »

أحد السابلة : ولم هذا الأسف يا عزيزتى ؟ إذا ما تهيأت الأكاليل فالأعناق حينئذ متيسرة

إحدى الفتاتين : وكذلك الأرسان [1]

الفتاة الثانية : إنك لشجاع مالك دنوت منى هذا الدنو ؟ !

الرجل : يا فتاتى ، شجارك هذا لغير ما داع ، فبينى وبينك ما يتسع لمرود فيل

الفتاة الثانية : أنى الحق هذا ؟ أمخوفة أنا بهذا القدر ؟ إنى ما كنت لآكلك لو أنك دنوت منى [يخرجون ضاحكين]

(يجىء سائل)

السائل : أيها السادة الرحماء ، اعطفوا ، فلعل الله أن يكتب لكم التوفيق . أعطونى يسيراً من خيركم الوفير

(يجىء جندى)

الجندى : هيا ابتعد من هنا ، أما ترى ابن الوزير قادماً ؟

[يخرجان]

سانياسى : هذه ظاهرة النهار [2] . إن الشمس لتستطع وتتوهج ، والسماء كأنها طاس من النحاس منكفئة تتقد ، وهذه الأرض تزفر بأنفاس حرار فتتراقص الرمال الملتجة . كم من مشاهد هذا الإنسان رأيت فهل فى استطاعتى أن أتراجع ثانية فى صغر هذه المخلوقات لأكون منها ؟ كلا ، بل أنا طليق لا يعوقنى فى هذا الكون شىء . إنى إنما أعيش فى قفر موحش !

(تدخل « فاسنتى » الفتاة وامرأة)

المرأة : ألست ابنة « رافو » يا فتاة ؟ عليك أن تبتعدى عن هذه الطريق ، ألا تعلمين بأنها مؤدية إلى الهيكل ؟

فاسنتى : إنى يا سيدتى على الطوار الأبعد منها

(١) جمع رسن (٢) ساعة انتصافه

المرأة : حسبت أن قد مسك ثوبي . إني حاملة هداياي إلى الآلهة ، وأرجو ألا تكون نجّست

فاسنتي : أؤكد لك أن ثوبك لم يمسني (تتعب المرأة) إني « فاسنتي » ابنة « رافوا » فهل أدنو منك يا أبت ؟

سانياسي : ولم لا يا طفلتي ؟

فاسنتي : لأني رجس كما يدعونني ؟

سانياسي : ولكنهم جميعاً دنسون . إنهم يتمرغون في تراب الوجود ؛ وليس من تقيّ غير من نقّى ذهنه من هذا الكون ، ولكن ماذا يدر منك يا ابنتي ؟

فاسنتي — لقد استهزأ أبي الذي اخترمته المنون بقوانينهم وآلهتهم ، ولم يكن يقيم شعائرهم

سانياسي — مالك تقفين بعيدة عني ؟

فاسنتي — وهل سَتَمَسُّني ؟

سانياسي — نعم ، لأني لا يمسني في حقيقة الأمر شيء . إني موغل في اللانهاية ، إذا شئت أن تجلسي هنا فافعلي

فاسنتي — (متحسرة) لا تأمرني بمغادرتك إذا ما قربتني مرة منك

سانياسي — كَفْكِفي عبراتك يا طفلة ، إني أنا سانياسي الذي ليس ينفذ في قلبه شيء من ضغينة ولا هوى ، وإذا لم تكوني لي فليس يوسعني أن أطردكِ . إن مَسَّكِ إذا قيس بي كان كمثل هذه السماء الزرقاء . إني أراك كائنة وغير كائنة — أنت — في نظري

فاسنتي — أبتاه ، إني منبوذة من الآلهة والناس على حد سواء

سانياسي — وكذلك أنا ، لقد نبذتُ الآلهة والناس

فاسنتي — أليس لكَ أم ؟

سانياسي — كلا

فاسنتي — ولا عندك أب ؟

سانياسي — كلا

فاسنتي — ولا اصطفيتَ خِلاً ؟

سانياسي — كلا

فاسنتي — فماذا كون معك إذاً . أفلا تغادرني ؟

سانياسي — لقد استغنيتُ عن الفراق . في إمكانكِ أن تظلي بجانبي ومع ذلك فأنت بعيدة عني !

فاسنتي — إني لا أفهمك يا أبتِ ! خبرني أليس ثمة ملجأ لي في هذه الدنيا كلها ؟

سانياسي — أتريدين ملجأ ؟ ألم يبلغكِ أن هذا العالم هوّة سحيقة لا تنتهي إلى قرار ؟ هذه جماهير الخلق خارجة من حفرة اللاشيء في البحث عن ملجأ لها ، فإذا هي تدخل في هذا الخواء الفاغر فاه وتضلّ فيه ! وتلك هي أخيلة الأكاذيب ملتفةً من حولكِ تقيم سوق أوهامها ؛ وما الأطمعة التي تبيعها سوى الظلال ! وإنها بذلك لتخدع جوعَكِ ولكنها لا تُشبِعُكِ ، فاخرجي من هنا يا ولدي ، اخرجي

فاسنتي — ولكني أراها في هذا العالم سعيدة يا أبتاه ! أفلا نستطيع أن ننتبذ من هذه الطريق مكاناً نرقبها منه ؟

سانياسي — إن هذه الجماهير لا تبغي شيئاً ويا للأسف . إن بصائرها لا تدركُ أن هذا الكون إنما هو الموت الأبدي الذي لا انتهاء له ؛ إنه ليموت في كل لحظة ومع ذلك فلن ينتهي إلى الغاية . وأما نحن مخلوقات هذا العالم فإنما نحيا وقوام قوتنا هذا الموت

فاسنتي — إنك لتملأ نفسي رعباً يا أبتاه !

(يدخل مسافر)

المسافر — هل أستطيع أن آخذ لي ملجأ بالقرب من هذا المكان ؟

سانياسي — يا بني ليس ثمة ملجأ إلا في أعماق نفس الإنسان . فابحث من هذا وتمسك به إن أردت نجاة

المسافر : ولكني متعب وفي حاجة إلى ملجأ ما

فاسنتي : إن كوخي على مقربة من هذا المكان فهل تجيء معي ؟

المسافر : ولكن من عسيت أن تكوني ؟

فاسنتي : وهل لا بد لك من معرفتي ؟ إني ابنة رافو

المسافر : بارك الله عليك يا طفلتي ؛ غير أني لا أستطيع بقاء

[ينصرف]

(البقية في العدد القادم) فتحي شهاب السعيدي

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)